

الصورة المقتبحة

للكاتب الانجليزى جيمس ماچورن
بقلم الأستاذ كمال محمود حبيب

الحياة ثم قذفت بها إلى هذا المأوى الحثير
نُسى بكأس مريرة من الفاقة والعوز
والوحدة ، بعد أن كانت ترشف من
رحيق الحياة رضا با سائفاً ؛ وأما الثانى
فهو والتر هو تن طالب طب أولع بفن
التصوير والرسم ، أرسلته جمعية المواساة
إلى هذه العجوز المربضة ليرعاها ، وهو

نبيل المنشأ والربى فيه الرجولة والكرم والشرف
والغنى جيماً ، وأحس في المرأة التى إلى جانبه عاطفة
شريفة فياضة تتأجج تحاول جهدها أن تكتمها عن
الناس ، غير أن الشاب لمس بعضها في رنات
صوتها وعذب حديثها وعطفها وحنانها ، فاطمأن
إليها واطمأن اليه

وجلس الطالب الشاب — ذات مرة — إلى
صديقه العجوز يتحدثها يقول وعلى فيه ابتسامة : « إننى
أعتذر إليك — ياسيدتى — فاقدم كان يترامى لى
أنك غير من عرفت ، فما كان لى أن أقحم نفسى فى
حديث هو بعض قلبك ، غير أن ما أحسست به من
حنانك وعطفك بعث فى نفسى أنه كان لك ابن
شغلت به زماناً عن كل شىء » وتدقت الكلمات من
بين شففى الشاب فى غير روبة ولا أناة ، غير أنها
تساقطت على قلب المرأة كأنها شواطى من نار ، ف راحت
تحدق فى الفتى علها تستشف ما وراء ، ثم وضعت يدها
على مكان القلب من صدرها كأنها تمسك به أن
يفرو هو ينتفض انتفاضاً سريماً ، وأرسلت زفرة
حرى تلهب أذهلت الفتى ... ثم ساد السكون ...
لقد أثارت كلمات الفتى أحزان قلبها وآلام ماضيها
فبدت على وجهها غصوناً غصوناً ، وفى محجربها
عبرات تفرق ؛ ثم انطوت على نفسها كأنما تنشر

لشد ما كان يسيطر على العجب وأنا أشهد
عرا كما عنيقاً ما تنطوى دواعيه ، بين ميندو رئيس
الشرطة وبين عصابة اللصوص ، فهو ما يهدأ إلا
أن يكشف ما يحكيون فى الخفاء ، ثم هم لا يستطيعون
أن يظهروا عليه ، وهو عدوهم الذى يلقى الرعب فى
قلوبهم ، ويزلزلهم زلزالاً شديداً بما فيه من خفة
ومهارة تفوقان ما كان يبدى زعيمهم رافيان . وفى
الحق لقد كان ميندو مبعث الخوف والفرع فى قلوب
اللصوص جميعاً لأنه كان يحمل لهم بين حنايا ضلوعه
صفينة تائرة لا تستقر إلا أن يدفع بهم إلى غيابة
السجن

وترامى لى أن ميندو — وهذا شأنه — رجل
قد نزع من قلبه الرحمة والشفقة ، حين رأته
— صرات ومرات — يؤدى واجبه فى صرامة
وشدة ؛ غير أن القصة التى أقص الآن تبرهن على
خطأ ما زعمت ...

فى حجرة ضيقة مضبوطة فى الطبقة الأعلى من
منزل فى ميدان (ميلين) جالسا يتسامران فى رقة
كأنهما صديقان حيمان برغم تفاوت ما بينهما فى السن
والطبقة : أما الأولى فهى مسزليون التى تسكن
هذه الغرفة ، استقرت هنا بعد أن تناوحت أعاير

« في نضوج الكريز ! جيمس ليون في السابعة من عمره »

وسيطر على الحجرة صمت عجيب ، وقد راع الشاب مارأى من جمال الصورة وفتنتها ، والمرأة تضطرب في ماضيها ... ثم بدد الطالب هذا الصمت بقوله : « ما أجل ! إنها فوق الوصف ! أفتعلمين ، يا سيدتى ، أن ثمن هذه الصورة قد يبلغ مائة جنيه أو مائتين أو أكثر ؟ » وابتسمت المجوز لما سمعت ثم قالت : « هذا حديث سمعته مراراً حين كنت أعيش في القبطية والسعادة ، إلى جانبي وحيدى جيمس ، أما الآن فلا سبيل إلى ذلك لأننى لا أستطيع عنها صبراً ؛ فهي رفيقتى بعد ولدى ، وهى وحى الهوى والحب لأنها آخر مارسم زوجى الفنان ، فهى عندي ترجيح مال الدنيا » وتهدم أمل الطالب حجراً حجراً ثم ارتد يحدق في الصورة ويقول : « ما أريد أن أشتريها إلا أن تأذنى ، ولكننى أريد أن أرسماً أخرى مثلها » قالت « وهذا أيضاً لا أَرْضاه فما أطيق أن تتناهبها الأبصار » قال الشاب : « إن عيناً إن تراها ، وسأحرسها بعناية هى فوق عنايتك . ولا ضير ، فأنا أدفع ثمن إذنك غالباً » وكانت الكلمات تضطرب على شفتى الشاب لأنه كان يستشف الرفض من نظرات المجوز . قالت : « أنا لا أستطيع النأى عن هذه الصورة لحظة من عمرى » قال : « ولكن المال ... » قالت : « إنك تحاول عبثاً » وانطوى الفتى على نفسه في صمت بعض الأنامل من الغيظ وقد شاعت حمرة الخجل في وجهه من أثر الخيبة ، ثم قال : « لا بأس ، فأنا أنقل عنها هنا ! » قالت : « ولا هذا أيضاً ، وإنه ليحزننى أن أحول بينك وبينها أبد الدهر » ثم

أمام عينيها صفحات من تاريخها فيها الألم والسرور في وقت معاً ... واستطاعت — بعد لآى — أن ترتد إلى الفتى تحذنه وفي صوتها الأسى واللوعة : « آه ، يا بنى ، اطو هذا الحديث ، حقاً لقد كان لى ابن ... ابن جميل طاهر كأنه بعض ملائكة السماء ثم ... ثم فجعت فيه » ثم غلبتها العبرة ... فقال الفتى في رقة : « لعله قد مات ! » قالت : « نعم ، ودفنته في قلبي .. لقد فقدته منذ زمان .. لقد خبرونى أنه أصبح لصاً فيه الضراوة والشراسة فاصدقهم .. أصبح لصاً يستلبنى ويستلب غيرى من متاعه ومن ماله ثم هو يهبط إلى السجن بين الحين والحين ... تلك خواطر تضطرب في خيالى فتذهب بصوابى وخير لى أن أعتقد أنه مات ... مات في طهره وجماله كما يبدو في هذه الصورة » ثم مدت يدها المضطربة إلى ستر ترجمه فبدت من ورائه صورة هى بعض آيات الفن الجليل ، فقال الطالب : « يا عجيباً ! إن هذه الصورة تبعث في النفس السلوة ! أفتأذنين فأنظر إليها حيناً ، فأنت تعلمين أننى أغرمت بهذا الفن منذ زمان ؟ » فقالت في هدوء : « نعم ، فأنا لا أستطيع أن أرد طلبتك جزاء ما حبوتنى من عطف »

وكشف والتر هوتن النقاب عن الصورة ثم ارتد إلى وراء وقد تعلق بصره بها يردده هنا وهناك في جوانب الصورة ... إنها صورة صبي يتألق حياة وجمالاً وتشع سمات السعادة والرضا من وجنتيه وقد انسدل شعره السبط الذهبى على كنفه وهو في صرح الطفولة ونشاطها يتوارى خلف شجرة من أشجار الكريز وفي يمينه غصن أنقلته ثمارها الحمراء وفي أسفل الصورة سطر :

فتوناً... وقبل أن يبرح الطالب المكان انطلق إلى (بوب) يسر إليه بعض أمله في خشية وحذر، ثم قال: «و.. وإنه ليتراءى لي أن بينك وبين رجال ممن كانوا رفاقك صلات متينة فتستطيع أن ترشدني إلى واحد منهم فيه الكفاية والدقة» ودهش المسجل لحديث الشاب وهو يبدو غنياً شريفاً أميناً: «ماذا؟ أفتريد...؟» قال الشاب في تؤدة: «لا، ما أريد ذلك إنني أنشد شيئاً ليس هو بالسرقة وإن بدا كذلك.. إنها صديقتي، وهي تملك صورة فيها الروعة والجمال، ولقد ضنت بها عليّ على حين لا أريد منها إلا أن تعيرني إياها فأرسم أخرى مثلها، وأنا رجل فنان، والصورة قد بلغت في الإتقان والدقة ذروة الفن؛ فإن أنا استعنت بك فما أطلب إليك سوى أن أستميرها بالقوة أياماً ثم أرددها...» قال بوب: «نعم، الآن استطعت أن أفهم ما تريد؛ وإن أنت تقضت وعدك فستقامي وبالأمرك» قال الشاب: «لأنحف فما كان لي أن أغتصب شيئاً هو لغيري يحله من قلبه في المحل الأول» قال الرجل: «إذن أستطيع... إن كورنخ جيم هو الرجل» قال الشاب: «ومن عسى أن يكون؟» قال بوب: «هو أحد أعضاء عصاة رافيان... وهو شاب فيه الذكاء والنشاط، وفيه الجرأة والفتوة، وإنه لتقدير» واندفع الشاب ينشر الأمر كله على عيني الرجل فقال: «لا خير، فسأصل بينك وبين جيم، ولكن حذار أن يكون في الأمر ما يزعج المعجوز أو يودي بحياتها!» قال الشاب: «لا، لا، لا؛ إن شيئاً من ذلك لن يكون؛ غير أن الصورة هي التي جذبتني إليها فهي قد سمت فوق كل فن هنا... هنا في اسكتلنده»

أسدت على الصورة ستارها وهي تقول: «والآن أطلب إليك أن تمحو ذكرى هذه الصورة من خيالك، وأن أرى في صمتك عنها البرهان على أنك رجل...»

ووجد والتر هوتن في المرأة إصراراً وعناداً فانطلق من لدنها وهو يتحدث نفسه قائلاً: «لا خير فسأنا ل بغيتي.. سأنا ل بغيتي.. وإن أعجزتني الأيام فسأجد من يسرقها!»

وابتداً هو — في اليوم التالي — يتحدث حديث الصورة فراعته أن يجد في مسز ليون الفتور والجفاف والصمت، فهي لا ترد جواباً بسوى ابتسامة فيها السخرية، أو نظرة فيها الازدراء، أو كلمة فيها الاستهزاء، وحز في نفسه أن يرى في مريضته ما رأى، فراح يقلب الأمر بين يدي عقله فبدا له أن يكف عن زيارتها. وفي اليوم الثالث حدثها حديثه في رقة وظرف، فقبلت وهي تقول: إنها شغيت وأصبحت في غنى عن الطبيب. وفي الحق لقد وجدت هي الفرصة لتكبح فيه رغبة تأججت حيناً، وبدا هو نبيلاً كريماً فاطاع، فما تلاقيا...

وتصرمت أيام... وإذا والتر هوتن في نديّ يلعب (البلياردو) مع صديق له، وعلى حين فجأة راح صديقه يتحدث: «أفتراك تعرف أن هذا المسجل (بوب) هو من شياطين اللصوص نزع عن السرقة واطمان إلى الأمانة، غير أنه يستطيع أن يستلب مال أي رجل هنا في سبيل دربهات معدودات أو زجاجة من الجمة ليريك بعض مهارته ودقته، ثم هو لا يهدأ إلا أن يرد المال إلى صاحبه؟» فابتسم هوتن للفكرة التي اضطربت في خياله، ثم تشعب الحديث

« لقد قلت إنها عجوز شطاء ، فإذا عساي أن أصنع
إن هي حاولت أن تدفع عن ذخيرتها ؟ » قال الطالب :
« إذن فلا تمسها بسوء ولا تبعث في قلبها الرعب
تخبر لي ألا أنال صورة من أن يصيبها أذى ... »
قال اللص : « لا ضير ، فما أجرى إذن ؟ » قال :
« خمسة جنيهات ، أفيكفيك هذا المبلغ ؟ » قال :
« نعم ، وستنال بغيتك بعد ثلاث ساعات »

وتصدع الجرم ، فانطلق الطالب إلى داره ،
وبوب إلى عمله . أما اللص فطار يهيم أدواته
ومصباحه ثم اندفع صوب دار العجوز في ميدان
ميلين وقد انتصف الليل . وفي هذه الآونة كان
ميندو وبنيبارك يفتشان عنى ... ثم انطلقنا جميعاً
نشدد علماً نستطيع أن نقبض على واحد من عصابة
رافيان

بلغ جيم الدار وقد ماتت الحياة في كل حي ،
نخلع نعليه ثم أخذ يرتقي الدرج في صمت حتى وقف
بازاء الباب ، ثم دفعه دفعة فاذا هو على مصراعيه
في غير عناء ولا جهد ، فوقف عند عتبة يتسمع
فما سمع سوى صوت غطيط العجوز ، ولمع الأمل
في ناظريه حين ردد بصره الحديد في أرجاء الحجرة
فرأى على ضوء نار المدفأة الصورة المعلقة فراح
يحدث نفسه : « لا بأس ، سأختطفها ثم أرتد إلى
الخلاء ، وستعلم هي كل شيء عند انبلاج الصباح ! »
ثم سار الهويني في حذر وخفة كأنه شبح

لشد ما أفرعه أن يسمع غطيط العجوز ينقلب
فجأة إلى أنات اليقظ وهو على قيد شبر من الصورة !
لقد اضطرب قلبه وانتفض جسمه ووقف في مكانه
لا يستطيع حراكاً ؛ غير أنها ما لبثت أن اندفعت
في غطيظها ، فأمسك هو بالصورة ينزعها عن مكانها

وكان الحديث بين الرجلين همساً في مكان خلا
من الناس سوى رجل زري الهيئة ، رث الثياب
أشعث أغبر ، وقد استلقى على تضد بازاء المدفأة ينظ
غطيطاً ويتوسد حزمة من الصحف اليومية . وحين
انطلق الطالب وصديقه إلى الخارج ، رفع الرجل
النائم رأسه في حذر ورقبة وقد شاع في وجهه
السرور ، وفي جسمه النشاط ، وفي عينيه سمات
المكر ؛ ووجد سيمن ببنيبارك نفسه وحيداً فقفر
من على التضد في خفة ورشاقة يقول في نفسه :
« ها هي ذى مؤامرة أخرى تفيد ميندو ! إن
كورنچ جيم رجل ظريف إلا أنه قد هوى . يا أسفا !
أهكذا تكون النهاية ؟ إن غاية كل من يسلك
سبيله أن يتردى ... » ثم انطلق يشدد إلى دار ميندو
وبلغ الطالب وصديقه دار كورنچ جيم ...

أفيكون هذا الشاب لصاً وهو يتنزه أدباً
ولطفاً ورقة وطلاقة ؟ لشد ما أذهل هوتن أن يرى
في الفتى الظرف ودماثة الخلق وذلافة اللسان فهو
لا يغلظ في حديثه ولا ينحط بكلماته إلى العامية
المقوتة وهي لغة أمثاله ! إن على وجهه سمات
الإجرام ، واسكنها لم تسترع نظر الطالب فهو قد
رأى رجلاً مهذباً مصقولاً دونه بعض ذوى المناصب
الراقية ... وخيّل إلى الطالب أنه رأى الرجل من
قبل ، ولكن أين ... ؟ متى ... ؟ إنه لا يستطيع
أن يجزم

وألقى اللص السمع إلى الطالب وهو يحدثه
حديث الصورة ، ويطلب إليه أن يستميرها له بالقوة
ويخلف في مكانها قصاصة من ورق تنبي عن الخبر
كله ... ثم قال : « ولن تضل الطريق فأنا أهديك
إلى هناك ، وهي في الطبق الملوى ... » قال جيم :

الهمس : « لا ، لست أنت ، لقد مات ! » ثم انفجرت في زهول شديد ...

وعلى حين فجأة اندفع الباب بشدة وصوبت أنا الصباح نحو اللص وارتعى عليه ميندو وبنبارك في وقت مما ليحولا بينه وبين أن يفر . غير أن الرجل لم يرد إلى ورائه ، ثم ينقض علينا كأنه النسر الكاسر يدافع عن نفسه شأنه في كل مرة ؛ بل ظل في مكانه هامداً لا يتحرك وهو يقول في حزن وانكسار : « لقد قتلها ! قتلت أُمى ! نخذوني إلى الشنقة واشنقوني تحت سمع العالم وبصره » وصاح بنبارك في طرب : « آه ها ! » ثم أخذ يتهادى في بهجة وسرور وهو يبعث بقطعتين من النقود ذهبيتين في يده ويقول : « لقد هددتني يا مستر جيم بالقتل ولكنه يخيل إلي أن السكين قد قطعت في الناحية الأخرى . والآن وقد ضيقت عليك الخناق فلا تجد مهرباً نخذ هاتين القطعتين مكافأة ذهبية لك » ولكن اللص في زهوله لم يع من شماعة خصمه حرفاً ، فهو يردد كلماته ما يمسك عنها

وأمرني ميندو فوضعت في يدي اللص غلاً ثم سقناه إلى دار الشرطة على حين استدعينا طبيباً يعالج المجوز

وفي صباح اليوم التالي بدت مسز ليون معصوبة الرأس من أثر جرح في جبهتها أصابها حين انطرحت على الأرض وهي تحاول أن تنقذ الصورة من بين يدي اللص ، وهي تتوكل على امرأتين . وحين استقر بها المقام طلبت إلينا أن نرى السجين وهي تقول : إن خطأ قد وقع بالأمس تريد هي أن تكشف عنه ...

ووقعت الواقعة ... لقد أبصرت بالشبح من خلال الضوء الضئيل المنبعث من نار المدفأة ، أبصرت به وهو يريد أن يستلب الصورة ... وفي غمضة عين أرسلت صبيحة دوّت في أرجاء الحجرة ثم ألقت بنفسها على الضيف الثقيل تشبث به ، فهمس هو في أذنها : « دعيني أيتها اللعينة ... دعيني وإلا صيبت عليك صوت عذابي ! » قالت : « لا ، لا أستطيع » ثم صاحت : « العون ! هيا ! اللص ! القاتل ! آه ! » ثم ماتت الصبيحة في أضواء أنة ضعيفة واهية حين دفعها يد اللص القاسية فانحطت على أرض الحجرة كأنها قطعة من حجر . وانفلتت الصورة من يده فأضاء مصباحه وهو يقول لنفسه وقد آلمه ما كان : « لاخير ، فهي ستنال الصورة بعد أيام . ولكن ... ولكن لماذا قسوت عليها ؟ الآن أستطيع أن أنطلق ... » وساد السكون مرة أخرى فراح يبحث عن الصورة ... ووقع بصره عليها ...

وانتفض اللص انتفاضة المحموم تمركه الحمي عر كما شديداً ... انتفض حين رأى في الصورة طفلاً فيه الجمال والطهر والرح في وقت مما . لشد ما آلمته الصدمة فأذهلته عن نفسه فانطلق إلى المجوز الملقاة على الأرض لا تمي ولا تحس وهو يتحدث وفي رنات صوته معنى الأمي والحزن « أماء ؛ آه ، يا أماء ! ياويح نفسي ! لقد قتلها ! قتلت أُمى ، يارباه ! » ثم أمسك بيدها الباردة وراح يحاول عبثاً أن يردّها إلى رشدها ... واستطاعت المجوز — بعد لأى — أن تحدّق في الرجل الذي إلى جانبها ، فاندبسط أسارير اللص فصاح : « أماء ! أماء ! إنه أنا جيم ابنك ! » وانفجرت شفتا المرأة في غناء عن مثل

في نفسه أنه محزون بندم على ما فرط منه وفي وجهه
أثر الحزني والعار

قال النائب : « أليس حقاً أنك كنت في وقت
ذات مال فرقه هذا السجين بدداً وخلفك بين
برائن الوحدة والفقر ؟ »

قالت : « إن مالي هو ماله ، غير أن رفاق السوء
دفعوا به إلى الهاوية فتردى . وإني أطلب إليك
— وقد علمت كل أمره — ألا تسألني عن
شيء ... » ثم أجهشت بالبكاء

فقال النائب نحوى وهو يقول : « إن المجوز
تصر على ما تقول فادع ميندو »
وجاء ميندو فسأله النائب : « أتعرف هذا
الرجل ؟ »

قال : « نعم ، إنه كورنج جيم »
قال : « أفتعتقد أنه اقتحم باب مسر ليون
بالأمس ليسطو عليها ؟ »

قال ميندو : « لقد خيل إلى ذلك غير أنني لست
خطيئتي حين علمت أنه كان يزورها »

وأخ النائب على ميندو يريد منه اعترافاً ولكن
من ذا يستطيع أن يرغم هذا الرجل الصعب — وهو
صائد اللصوص — أن ينزل عن رأيه ؟ لقد كان
عبثاً كل ما بذل النائب من جهد ، فألغيت المهمة
وانطلق كورنج جيم ليسدل على نفسه الشريرة ستاراً
كثيفاً من النسيان . ثم ليكون ... ليكون هو
جيمس ليون ، وايستقر في قرية على مسافة نائية منا
رئيساً لهال مصنع النسيج هناك ، يعيش إلى جانب
أمه الحنون في هدوء وطمأنينة وقد سكن إلى الجد
والنشاط والأمانة والشرف . لا يحيد عن الطريق
المستقيم

لامس محمود مهيب

(٦)

وتصرفت ساعة من زمان وهي في حجرة اللص
فماذا كان ؟ إن واحداً لا يستطيع أن يعلم ماذا كان
منها وماذا كان منه ؟ وخرجت من لدن اللص
لتجلس على كرسي بإزاء المدفأة وعلى وجهها سمات
الهدوء والطمأنينة وفي عينها آثار عبرات مهراقة ...
وأقبل ميندو عند الظهر فتأدته تسر إليه بحديث
طويل وبده بين يديها ودموعها تتدفق في غير هواده
ولا رفق ، وهو يسألها حيناً ويسمع حديثها حيناً
آخر وفي النهاية قالت له : « لا تنس أنني أمه وهو
وحيدى ، فاعف عنه واصفح كما تنتظر أنت الفقران
من الله » فتطلق وجه الرجل من عبوس وحياها
في احترام ، ثم انطلق ...

ثم ... ثم نودى جيم للمحاكمة وأقبلت مسر
ليون خلفت اليمين وسئلت أول من سئل
قال النائب : « أفتعرفين هذا الجاني ؟ »
قالت : « نعم ، وهو ابني » فأرسلت هذه
الكلمات دويماً من الهياج والهمس في أرجاء المحكمة
ثم سألت النائب : « أفتتهمينه بالتسلل إلى دارك
والتعدى عليك ؟ »

قالت : « لا ، إن جيم لا يستطيع أن يجد في
قلبه القسوة فيرفع يده ليضربني وأنا أمه »
قال : « كأنك تريدني أن تقول إنه ليس هو
الذي اعتدى عليك ، فكيف إذن أصيبت جبهتك ؟ »
قالت : « لست أدري ، وكل ما أستطيع أن
أقوله هو أننا لم نتلاق منذ سنوات وسنوات فلما
رأيت به إلى جانبي ألقيت بنفسي بين ذراعيه وزهلت فما
أقفت إلا والطبيب يضمده جرحي »
وسمع السجين كلمات أمه فما استطاع أن يكتم